المقال الافتتاحي

الثورة الرقمية وتحولات القوة الناعمة

أ. د. شريف درويش اللبان

أستاذ ورئيس قسم الصحافة بكلية الإعلام جامعة القاهرة

القوة الناعمة Soft power مفهوم صاغه جوزيف ناي من جامعة هارفارد لوصف القدرة على الجذب والضم دون إكراه أو استخدام القوة كوسيلة للإقناع، أي جعل الآخر يفعل ما نريد من دون إرغام. ومن الناحية الإجرائية تجيز نظرية الحرب الناعمة خطط الحرب غير المباشرة، كاللعب بقواعد الخصم وخلق حالة من التشكيك في الثوابت والمعتقدات التي يتبناها الخصم.

وقد حاولت الولايات المتحدة الأمريكية أن تفرض قوتها الناعمة في أواخر عقد الثمانينيات من القرن الماضي بإقرار ما أسمته «النظام الإعلامي العالمي الجديد» New Word Communication Order، وكانت منظمة اليونسكو ساحة لحوارات مريرة حول التدفق العالمي للمعلومات. وتركزت عديد من النقاشات على أن وكالات الأنباء الرئيسة التي تسيطر عليها الدول الغربية تشوه ما يجري في الدول النامية، وأن وسائل الإعلام الغربية أصبحت ذات قوة متزايدة، وأن أقمار البث المباشر أصبحت تمثل تهديدًا أكبر لأن إشارتها تغطي عددًا من الدول بالترفيه والتسلية المتلفزة، حاملةً المعلومات والثقافة فيما وراء قوة الحكومات الوطنية في دول العالم الثالث (اللبان، 2011، ص 27).

وجاءت الخطوة المهمة لتمكين الولايات المتحدة في فرض قوتها الناعمة مع نشوء شبكة الإنترنت وبدء الاستخدام الجماهيري لها في دول العالم المختلفة ومن بينها الدول النامية. وقد حثت الطبيعة المتفردة للإنترنت كوسيلة اتصال جديدة قادة العالم على تشكيل سياسة للتعامل مع هذه الشبكة، فقد عقدت الدول الصناعية السبع الصناعية الكبرى «المؤتمر الوزاري لمجتمع المعلومات» عام 1996. وقد تمت الموافقة في هذا المؤتمر على مجموعة من المبادئ، ومن بينها تشجيع المنافسة والاستثمار الخاص، وتحديد إطار عمل تنظيمي ملائم، وإتاحة الوصول المفتوح Open Access، للشبكات، وضمان الوصول العالمي للشبكة، ودعم المساواة في الفرص والتعددية في المحتوى (Human Rights Watch, 1996). وهكذا استطاعت الولايات المتحدة أن تعطي إشارة البدء في تغلغل وسيلتها الرئيسة والجديدة (الإنترنت) في ممارسة قوتها الناعمة في نسيج المجتمعات المختلفة عبر العالم.

ومع الانتشار الهائل لشبكات التواصل الاجتماعي حول العالم، تبنت الولايات المتحدة فلسفة لتوظيف شبكات التواصل الاجتماعي تتسق مع الخلفية الفلسفية والفكرية لاستراتيجيات وسائل الاتّصال والإعلام التي تتبناها وزارة الخارجية الأميركية، وهى نفسها خلفية المدرسة الأميركية الكلاسيكية، التي صاغها المفكر وعالم الاتصال الكندي مارشال مكلوهان التي تقول: «إنّ شكل وطبيعة وسائل الاتّصال والإعلام

في أيّ مجتمعٍ وأيّ عصرٍ هي التي تصوغ شكل التنظيم الاجتماعي والسياسي وليس العكس، وإنّ نشرَ وتعميم وسائل الاتّصال والإعلام في المجتمعات هو هدفٌ في حدّ ذاته، لأن أدوات ووسائل الاتّصال والإعلام تخلق شروطَ نموّ البيئة الليبرالية التّحرُّرية والديموقراطية في المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

شبكات التواصل الاجتماعي: القوة الناعمة للإرهابيين

توجد ثمة خمس مغريات للتنظيمات الإرهابية والمتطرفة لاستخدام شبكات التواصل الاجتماعي: أولها البعد عن سيادة الدول، وثانيها إتاحتها للجميع وصعوبة السيطرة عليها من قِبَل الأجهزة الأمنية، وثالثها تقديمها خدمة الاتصال والتواصل السريع بين الأعضاء والمؤيدين بطرقٍ شتى، ورابعها توفير منصات إعلامية للدعاية لأنشطتها وأفكارها، وخامسها إمكانية النشر المكثف للصور والأفلام والوثائق التي تدعم الأفكار التي تروج لها (داود، 2016).

وقد حرص تنظيم «داعش» على نشر كتيب إرشادي بين اتباعه لوضع قواعد استخدام شبكات التواصل الاجتماعي مثل «فيس بوك» و«تويتر»، مشدداً على أفراد الميليشيات عدم وضع معلومات وصفية عن أنفسهم في الحسابات المستخدمة. وكان التنظيم حريصًا على إشعال «البروباجندا» على صفحات شبكات التواصل الاجتماعي لتشجيع الآخرين على الانضمام إلى ميليشيات تنظيماته، وذلك بنشر صور تعرض أسلوب حياة مقاتلي التنظيم، وصور رءوس أعداء التنظيم المفصولة عن أجسادها، لكنه توصل إلى خطورة ذلك على المقاتلين، كما توصل التنظيم إلى أن استخدام حسابات على شبكات التواصل الاجتماعي يمد أجهزة الاستخبارات الغربية بمعلومات قيمة عن مواقع الميليشيات، ويكشف عن هويات المقاتلين مما يجعلهم هدفاً لطائرات الحلف الدولي المناهض للتنظيم المتطرف.

وشدد الكُتيب الإرشادي على المقاتلين عدم استخدام التطبيقات التي تكشف عن التوقيت وموقع إرسال الرسالة، واضعًا لمقاتلي التنظيم أساليب يتفادون بها تلك البيانات والتطبيقات التي تسهل من مهام الأجهزة الاستخبارية في الغرب، في حين منعت مجاهدين آخرين من استخدام شبكات التواصل الاجتماعي بشكل تام.

واعتبرت مجلة «فورين بوليسي» Foreign Policy عدم قدرة الحكومة الأمريكية علي تحقيق "مكاسب حقيقية" من وسائل الاتصالات الحديثة "أمرًا محرجًا». ورأت المجلة أن الصور والبيانات المؤثرة هي أكثر ما يجذب الانتباه، مشيرةً إلي أنه مثلما يعد التمرد والهجمات الإرهابية وسائل يمكن من خلالها أن يقف الضعيف في وجه القوي، فإن شبكات التواصل الاجتماعي تجعل من لا قوة له يقف أمام القوي، خاصة أن فكرة «اللا مكان» أفضل من نفاق الشخصيات العامة والسياسات الحكومية. وذكرت المجلة أن رسائل «داعش» تعزز الاعتقاد القائم حول «قسوة» التنظيم «القاتلة»، إلا أن الأمر مرتبط أيضًا باستراتيجية أوسع تعتمد علي إبعاد الولايات المتحدة عن التدخل، وذلك من خلال تذكير الأمريكان بمدى «تعقد» و«عنف» العلاقات الإقليمية والدينية في الشرق الأوسط، مما يعزز الشعور لديهم بعدم الرغبة في التدخل، وهو ما يجعل هذه الرسائل «مؤثرة» (اللبان، 2014).

وذكرت المجلة الأمريكية أن تنظيم «داعش» يتفوق على الولايات المتحدة بكثير فيما يتعلق بـ»دبلوماسية الهاشتاج»، أو التأثير في الرأي العام من خلال مواقع التواصل الاجتماعي مثل «فيسبوك» و»تويتر» و»يوتيوب»، مشيرةً إلي أن التنظيم يخوض حملة دعائية «مؤثرة ببراعة». واعتبرت المجلة أن «داعش» لديه قدرة رائعة علي صياغة «رسائل مثيرة» تدعم أهداف حملتها العسكرية، قائلةً إن «همجية التنظيم تصب في صالح عزوف الدول عن الدخول في حرب معهم، ويعزز تردد الشعوب الغربية فيما يتعلق بالدخول في حرب جديدة في الشرق الأوسط».

وقد وجه ريتشارد هانيجان، الرئيس الأسبق للاستخبارات البريطانية، اتهامًا لعدد من شركات التقنية الأمريكية، العاملة في وادي السيليكون بولاية كاليفورنيا، بأنها أصبحت شبكات القيادة والتحكم المفضلة للإرهابيين، مشيرًا إلي أن شركات عملاقة، مثل موقعي التواصل الاجتماعي «فيس بوك» و»تويتر»، أصبحت شبكات قيادة وتحكم للإرهابيين والمجرمين. وأوضح هانيجان، أن عناصر»داعش» في العراق وسوريا، يستخدمون مواقع التواصل الاجتماعي لترهيب الناس، وإلهام الجهاديين المحتملين من كل أنحاء العالم للانضمام إليهم (اللبان، 2014).

كما سبق أن نشرت صحيفة «ديلي تلجراف» Daily Telegraph مقالاً لـ «كون كوفلين» بعنوان «كيف ساهمت وسائل التواصل الاجتماعي في نشر سموم تنظيم داعش؟». وقال كاتب المقال إن «إدوارد سنودن» المتعاقد السابق في وكالة الاستخبارات الأمريكية مهد الطريق أمام ظهور نوع جديد من الدعاية للمتطرفين، مضيفًا وبطريقة استهزائية بأن على «سنودن» الذي يتمتع بملجأ آمن في روسيا وأن يكون فخورًا بنفسه، لأنه لم يكشف فقط عن كيفية تجسس الولايات المتحدة وحلفائها على أعدائها، بل علّم جيلًا كاملًا من المتطرفين أفضل طرق استخدام وتوظيف الإنترنت لنشر أفكاره. وأوضح كاتب المقال أن تنظيم «داعش» يعتبر أول جماعة إرهابية استخدم عناصرها الحواسيب الإلكترونية منذ ولادتهم، كما أنهم يتمتعون بقدرٍ عالٍ من الكفاءة في كيفية إنتاج الأفلام الدعائية الخاصة التنظيم وبكيفية توظيف شبكات التواصل الاجتماعي لجذب مزيد من المؤيدين لهم.

التجارب الحديثة في تفعيل القوة الناعمة العربية:

بدأت بعض الدول العربية في استيعاب مفهوم «القوة الناعمة»، وبدأت في استكشاف مصادر هذه القوة، واتخاذ خطوات جادة في تمكين قوتها الناعمة من الترويج لها، ومن أمثلة هذه الدول الإمارات العربية المتحدة التي وضعت «الاستراتيجية الوطنية للقوة الناعمة لدولة الإمارات» عام 2017، وتمت صياغتها وبلورة رؤيتها ورسم سياساتها العامة ووضع آليات تنفيذها، وفق الهدف الرئيس الذي حدده الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم نائب رئيس الدولة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي، والمتمثل في تعزيز سمعة دولة الإمارات إقليميًا ودوليًا وترسيخ احترامها ومحبتها بين شعوب الأرض، وإبراز صورة الإمارات الحضارية وإرثها وهويتها وثقافتها المميزة. وتتألف الاستراتيجية الوطنية لدولة الإمارات من ستة محاور أساسية تشكل إطار الدبلوماسية العامة لدولة الإمارات؛ هذه المحاور هي: الدبلوماسية الإنسانية، ودبلوماسية الشخصيات والتمثيل الدولي، والدبلوماسية الشعبية، والدبلوماسية العلمية والأكاديمية، والدبلوماسية الثقافية والإعلامية، والدبلوماسية الاقتصادية (الإمارات اليوم، 2017).

كما قامت الإمارات بتشكيل «مجلس القوة الناعمة لدولة الإمارات العربية المتحدة» في نفس العام وذلك بهدف تعزيز سمعة الدولة إقليميًا وعالميًا وترسيخ احترامها ومحبتها بين شعوب العالم ويختص برسم السياسة العامة واستراتيجية القوة الناعمة للدولة، ويتبع مجلس القوة الناعمة بشكل مباشر مجلس الوزراء ويعمل على صياغة منظومة وطنية متكاملة تشمل الجهات الحكومية والخاصة والأهلية لنقل قصة الإمارات للعالم بطريقة جديدة.

وفي مصر، تتبع الدولة منهجًا متوازنًا على الساحة الدولية، ولدينا تنوعٌ فريد من القوة الناعمة من فنون وآداب، فلدينا تاريخ مجيد مثل إذاعة صوت العرب، وتأثيرها العميق قبل وبعد ثورة يوليو، كما أن الإعلام من القوى التي تدهورت بسبب غياب الرؤية، وأن علينا تطوير المعاهد والجامعات. كما أنه علينا الارتفاع بسقف الحرية، وأن قطاع الأخبار يتبع مؤشر الدولة، والمأزق هنا أننا نتباكى على الماضي فعلينا أن نعيش المرحلة. وأنه يجب أن يكون للدولة دور ونفوذ في ربط القوة الناعمة بعضها ببعض.

الهوامش:

الإمارات اليوم، منصور بن زايد: الإمارات لديها المقومات الاقتصادية والثقافية والحضارية لبناء مكانة عالمية، 26 سبتمبر 2017، متاح على: http://www.emaratalyoum.com/local-section/other/2017-09-26-1.1030385

داود الكثيري وصلاح سالم، التواصل الاجتماعي: القوة الناعمة للإرهابيين، صحيفة المدينة السعودية، 20 أغسطس 2016، متاح على: http://www.al-madina.com/article/464654

شريف درويش اللبان، الاستراتيجية الإعلامية والثقافية لمواجهة تنظيم داعش، القاهرة: الهيئة العراقية العامة لخدمات البث والإرسال «شبكة الإعلام العراقي»، الملتقى الإعلامي العراقي المصري، ورشة عمل بعنوان: داعش: العالم في مواجهة الإرهاب الدولي، الأحد 23 نوفمبر 2014.

شريف درويش اللبان، الإنترنت: التشريعات والأخلاقيات، (القاهرة: دار العالم العربي، 2011)

شريف درويش اللبان، الصحافة الإلكترونية: دراسات في التفاعلية وتصميم المواقع، ط3، (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2005)

الوطن، نقاش موسع حول «مستقبل القوة الناعمة في مصر» بفعاليات صالون الإسكندرية، 13 سبتمبر 2017، متاح على: http://www.elwatannews.com/news/details/2516457

Human Rights Watch, Silencing the Net: The Threat to Freedom of Expression On-Line, Vol.8,No.2,(G), 1996, Available at: https://archive.epic.org/free_speech//intl/hrw_report_5_96.html